REPUBLIQUE DU NIGER
Université Abdou Moumouni Niamey
IRSH

جمهورية النيجر
جامعة عبدو مؤمن - نيامي
معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية

دور الشعر العربي في النهوض بالفصحى في أفريقيا

إعداد/ الدكتور يوسو منكيلا
باحث بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية التابع لجامعة عبدو مؤمن . نيامي
وأستاذ الأدب والنقد العربي بالجامعة الإسلامية في النيجر

محاور الموضوع:

دور الشعر العربي في النهوض بالفصحى في أفريقيا:

تمهيد:

المبحث الأول: مدخل إلى تاريخ الأدب العربي الأفريقي

المبحث الثاني: إسلامية الشعر العربي الإفريقي وازدهاره

المبحث الثالث: مواكبة الشعر العربي للحياة اليومية في أفريقيا

المبحث الرابع: التطور النوعي للشعر العربي الأفريقي

الخاتمة ونتائج البحث.

تمهيد:

يعتبر خُلُوُّ تاريخِ الأدب العربيّ من إسهامات الأدباء الأفارقة ثغرةً كبيرةً، إذْ فَقَدَ ـ بذلك ـ جزءا غاليا من مكتسباته الثمينة، فالذي يُؤَرِّخُ لهذا الأدب لا يستطيع أن يُقَدِّمَ تأريخًا شاملاً ومتكاملاً له، يغطِّي المساحةَ الجغرافيّة التي غطَّاها بالفعل عبر التاريخ، خاصةً إذا علمنا أنَّ العرضَ الطبيعيَّ لتأريخ الأدب العربي لا يتوقَّفُ عند ذكر انتشاره في ربوع الجزيرة العربية وما جاورها من منطقة الشام، ومصر، والأندلس، والمغرب العربي.

والمتَتَبّع لخريطة انتشار الإسلام يلاحظ انتشارا موازيا ومساويا للأدب العربي عبر هذه الخريطة، ويلاحظ كذلك أنّ الإسلام حمل معه – إلى جانب علومه ومعارفه الخاصّة به – أدبا عربيّا صرفا يتمثَّل في جملةٍ من النصوص الشعريَّة والنثريَّة التي أصبحت من لوازم حذق اللُّغة العربيَّة، ووسائل التوسُّع في فهم القرآن الكريم، وتذوُّق بلاغته السامية.

ولقد تلقّت الأمّة الإسلامية – مع العلوم الشرعيَّة – علومَ اللُّغةِ العربية والأدبِ العربي، على اختلاف بيئاتها وثقافاتها، فنشأ نوعٌ من التكوين العلمي والأدبي لديهم زائدٌ عن الضرورة من الدين، ممَّا نسمِّيه أدبا إسلاميًّا بحكم كونه نتاجا للتَّفَقُّه في الدين، وأثرًا من آثار (طلب العلم) الذي فرضه الله على المسلمين.

ولا يُعقَل أن يعدم الأدب العربي في إفريقيا السمراء مناخا طيِّبًا ينمو فيه ويتطوّر، خاصّة وأنّ الأفارقة نالوا من التفقُّه في الدين، وحِذْقِ لغة القرآن حظًّا وافرا، وتلَقَّوْا من معارف الوحي قدرا كافيا، فنتج عن هذا وذلك ثقافةٌ إسلاميةٌ في مضمونها، عربيّةٌ في وعائها اللُّغويّ والأسلوبيّ، إفريقيّةٌ في ملامحها البيئيّة.

ومع ما يقال – عادة – عن هذا التراث من أنَّه تعرَّض للضياع، فإنَّ كثيرا منه ما زال حيًّا مُدَوَّنًا في شكل مخطوطاتٍ، بل إنَّ العطاءَ العلميَّ والأدبيَّ ظلَّ متواصلا في إفريقيا على مدار القرون، ويوجد الكثيرُ من المخطوطات التي تمثِّل أساسا طيّبا لإحياء التراث العلمي العربي والأدبيّ في (إفريقيا)، كما يوجد من بين المقتنيات الثمينة التي تحتفظ بها الأُسَر العلمية العريقة في إفريقيا، الشيءُ الكثير من هذا التراث العلمي العربي الخالد.

المبحث الأول: مدخل إلى تاريخ الأدب العربي الأفريقي:

الواقع أنه ليس لدى كثير من المثقَّفين بالثقافة العربيّة في أيامنا هذه إلمامٌ كافٍ بالأدب العربي الإفريقي، ولعلَّ أحسنَ انطباعٍ لدى القليلين منهم ممَّن أَلَمَّ بشيءٍ من ذلك بحُكم تخصُّصه العلميّ، لا يعدو أن يكون انطباعا سطحيًّا عن روعة ما تركه بعضُ المشاهير مِن العلماء الأفارقة من إنتاجٍ علميٍّ، وتُعتبر آثارُ شعراء (نيجر) أمثال الشيخ إبراهيم الكانمي والشيخ ابن فودي رحمهم الله، من هذا القليل الذي يستطيع أيُّ دارسٍ مُتخصِّصٍ في تاريخ إفريقيا الإسلامي أن يُؤَكِّدَ معرفتَه ببعضه، واطِّلاعَه

عليه، فلقد أُتيحَ لنيجرِ ولنيجيريا وغيرهما من الظروف التاريخيّة ما جعل علماءَها على صِلَةٍ مستمِرَّةٍ بعُلَماء العرب، خاصَّةً في الشمال الإفريقي، كما ساعدَتْ الظروفُ نفسُها على طباعةِ كثيرٍ من المؤلَّفات القَيِّمة التي خَلَّفها هؤلاء العلماء.

ويحفِلُ الغربُ الإفريقي بالعديد من المؤَلَّفات القيِّمة منها الآثارُ العلميَّة التي ما زالت مغمورةً لا تقِلُّ روعةً عمَّا تركه علماء نيجر ونيجيريا وأُدباؤُهما، بل يُمكِن القولُ بأنَّ من بين تلك الآثار العلميّة والأدبيَّة ما يختلِف عن الروائع التي خلَّفها علماء نيجر ونيجيريا وأدباؤهما من حيث الكمِّ والنوعِ، نقول ذلك، ونحن نُدرِكُ أنَّ لكلِّ منطقة إفريقيَّة خصائصَها الجغرافيَّةَ والتاريخيّة والثقافيَّة التي تَجعلُ الاختلافَ بينها وبين غيرها من مناطق القارَّة واقِعًا لا يمكن إنكارُه.

ولعلَّ الاهتمام الذي نلْحظه لدى الباحثين العرب بعلماء نيجيريا ومؤلَّفاتهم، والتنويهَ الذي يبرزُ من خلال أبحاثهم الخاصّة بالحركة العلميّة والأدبية في هذا البلد الإفريقي، ناتجٌ – بدون شَكَّ – عن عدم اطِّلاعهم على القدر الكافي من الروائع الإفريقية الأخرى التي شاء سوءُ طالعها أن تبقى غيرَ منشورة ولا متداوَلة، ونحن نعتقد جازمين أنَّ عمومَ الشعر العربي النيجيري – مع تسليمنا بجودته – لا يُمثِّل عمومَ الشعر العربي الإفريقي كله، فهناك خصائصُ فنيةٌ تطبع الشعر في نيجيريا تختلف عن الخصائص التي تطبعه في غيرها من مناطق الغرب الإفريقي، والسبب واضحٌ في اختلاف البيئات الطبيعية منها والثقافية، والظروف التاريخية التي مرَّت بها كل منطقة إفريقية.

ويُمكن القول بأنَّ النيجر وغينيا والسنغال ومالي تُعتَبَر (مربعا ذهبيًّا) في إفريقيا يستطيعُ الباحثُ الجادُّ أن يجد فيه كنوزا، من روائع الشعر العربي، تختلف من حيث الكم والنوع عن روائع الشعر العربي في نيجيريا وتشاد مثلا، ويجد في تلك الروائع من الخصائص الأسلوبية ما لا يجده في هذه الروائع.

ولا شَكَّ في أنَّ رحلةَ الشعر العربي من الجزيرة العربية إلى ربوع الشام ومصر، ثم الأندلس والسودان، أكسبته خصائصَ لم تكن متوفِّرة فيه في بيئته الصحراوية، فلقد تشبَّع بالكثير من صور التعبير، وأساليب البناء، وضروب الأخيلة، فتوسَّعت آفاقه، وتعددت ألوانه، ورقَّت حواشيه، وتهذَّبت آلياته، نتيجة لثراء البيئة الطبيعية التي استقرَّ فيها الشعراء وتنوُّعها.

والمتتبع لخريطة الشعر الإفريقي يجد نوعا من التفاوت بين اتجاهاته ومساراته، ويجد في هذه الاتجاهات والمسارات أجواءً شعريةً مختلفةً، وصورًا تعبيريةً متباينةً، ومن المفيدِ أن تتضافر الجهودُ المخلصةُ في مجال جمع التراث العربي الإفريقي من مصادره المختلفة، ويتوسّعَ مجالُها لتتناول مناطقَ إفريقيّة أخرى، فحصر الدراسة على نماذجَ محدودة من الإنتاج الأدبي في إفريقيا اجترار لا مبرر له، ولا تُرجى منه فائدة كبيرة، ونستطيع التأكيدَ على أنَّ الباحثين سيعثرون في مناطق إفريقية أخرى على كنوزٍ من الأدب العربيّ الإفريقي الرائع تُشبِع فضولَهم العلميّ.

ومما لا شَكَّ فيه أنَّ الازدهارَ الذي حصل للأدب العربي في الأندلس، قد حصل في إفريقيا أيضا ازدهارٌ موازٍ له، سواءٌ أكان ذلك من حيث جودة الإنتاج، أم من حيث تعدُّد الأغراض الشعرية، وإن كان ثمة فرقٌ فيكون في الظروف البيئية والتاريخية التي من شأنها أن تطبعَ أدبَ أمةٍ بمميزاتٍ خاصة بها..

ونقدِّم نموذجا واحدا من أعلام الأدب الإفريقي بلغ من الشهرة في المصادر العربية حدًّا بعيدًا، وحصل له من القبول لدى نقَّاد العربية ما لم يتهيَّأْ لأديب أو عالِمٍ إفريقي، وهو (إبراهيم الكانمي) الذي (قدم على المغرب قبل الستمائة) على حدِّ تعبير ابن الآبار[1] وحصل على تقدير كبار نقَّاد العربية، أمثالِ (ياقوت الحموي) الذي وصفه بأنّه: (مشهودٌ له بالإجادة)، ووصف (ابن حمُّويه) شعرَه بقوله (إن الكانمي يُعرب عن شعرٍ فصيحٍ، ولفظٍ صحيحٍ، ووزنٍ مستقيمٍ، ومعنى قويم) وقال عنه (الصفدي) إنَّه كان (جيِّدَ النظم) [2]، ومن جيد شعره قوله يمدح أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب:

مـــا بَعْـــدَ بابِ أبي إســـحاقَ منزلـــةٌ يســـمو إليهـــا فـــتًى مثلـــي ولا شـــرَفُ
أَبَعْـــدَ مـــا بَرَكَـــتْ عنســـي بســـاحته وصـــرتُ مِـــنْ بَحْـــرِهِ اللُّجِـــيِّ أغـــترِفُ
هَمُّـــوا بِصَـــرْفِي وقَـــدْ أَصْـــبَحْتُ مَعْرِفَـــةً فكيـــف ذلـــك واسمـــي لـــيس ينصـــرِفُ

وواضحٌ من هذه الأبيات أن الشاعر مُتمَكِّنٌ، ويمتِلك من أدوات صناعة الشعر ما يمتلِكه أمثالُ المتنبّي وابن الروميّ والبحتريّ وغيرهما، ومع ذلك، فإنّ ما تركه هو وغيره من شعراء إفريقيا السوداء من روائع الشعر وعيونه، لم يحْظَ بشرفِ الانضمام إلى التراث الشعري الضخم الذي يحفلُ به تاريخُ الأدب العربي، ولم يجد له مكانًا من بين عيون الشعر العربي الذي يُدَرَّسُ في المدارس والجامعات، بل إن مؤرِّخي الأدب العربي لا يُدْرجونه بين الأعمال الأدبية الرائعة التي يحفل بها التراث العربي الإسلامي، ولقد أدَّى ذلك كلُّه إلى وجود فجوة في تاريخ الأدب العربيِّ أفقدت هذا الأدبَ تكامُلَه وتنوعَه وثراءَه، بل وأدَّت إلى طمس بعض معالمه العالمية.

والواقع أنَّ انقطاعَ الصلة بين علماء القارة الإفريقية وأدبائها ونظرائهم في المشرق والمغرِبِ العربيين، أدَّى إلى أن ينموَ الشعر العربي الإفْريقِي نموًّا ذاتيًّا داخل بيئته القديمة، وضمن بنيته الفنية التقليدية، فالصِّلات العلمية التي تزامنت مع الصِّلات التجارية إبَّان ازدهار الممالك الإفريقية، لم تستمرَّ في ربط شمال القارَّة بجنوبها على الرغم من حصول نوعٍ من التحسُّن في مجال الاتِّصالات ناتجٍ عن الكشوف الجغرافية والاختراعات العلمية.

---

[1] محمد ابن شريفة ، **إبراهيم الكانمي: أنموذج للتواصل الثقافي بين المغرب والسودان** ، الرباط: جامعة محمد الخامس ، 1991م ، ص 19 .

[2] المرجع نفسه ، ص 28 . 29 .

ولا شَكَّ في أنَّ العالمَ العربيَّ استطاع أن يحافظَ على تراثه العلمي، رغم الغزو الثقافي الذي تعرَّض له عبر التاريخ، فنشطتْ فيه حركةٌ علميةٌ وأدبيةٌ واسعة النطاق، شملت ليس فقط مجالَ المحافظة على الهويّة العربية الإسلامية، وإحياءِ اللغة العربية، ولكن أيضا، شملت مجالَ جمعِ التراث العلمي الذي خلَّفه الأجداد، وتحقيقِه ونشرِه بمختلف الوسائل والطرق.

إلاّ أنَّ هذه النهضةَ العلميةَ المباركةَ لم تأخذ في الاعتبار الأدبَ الإفْريقِي كتراثٍ قيّمٍ لا يقلُّ أهميَّةً عن الأدب العربي الأندلسي، وكان ـ مثله ـ قد نشأ في مناخٍ غيرِ عربيٍّ، وفي بيئةٍ جغرافيةٍ غير عربيةٍ كذلك، ولقد ظلّ هذا الإنتاجُ الضخمُ مدوَّنًا في مخطوطات قديمة لم تستطع مقاومةَ الزمان طويلا، فذهب الكثير منها ضحيَّةً للضياع أو الحرائق أو التلف، وبقي القليل منها مُتَفَرِّقًا لا يضُمُّه مكانٌ، ولم يَحْظَ ـ في الواقع ـ أيُّ إنتاجٍ علميٍّ عربيٍّ إفريقيٍّ باهتمام الباحثين العرب وعنايتهم، ولم تَجْرِ محاولةٌ لإدراج روائع الشعر العربي الإفريقي ضمن النصوص الأدبية التي تُدَرَّس في الأدب العربي، ولا يتضمَّن تاريخُ هذا الأدب إشارةً إلى ما أنتجه الأفارقة من أعمال أدبية تمثل حلقة مُهِمَّةً من سلسلة الأعمال العظيمة التي خلَّفها رجالُ الأدب العربي على امتداد التاريخ.

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنَّ من الشعراء الأفارقة كثيرين لا يقلُّون عن المتنبي والبحتري وابن الرومي شاعريَّة، ويملكون من أدوات صناعة الشعر مثل ما ملك أولئك، ومن العاطفة والتخيُّل ما كانوا يتوفَّرون عليه، ومن الدوافع إلى قول الشعر ما كان يدفعهم إلى ذلك، وإن كانوا يفتقرون إلى بعض الشروط اللازمة لصقل الموهبة الشعرية، وتوسيع آفاق التعبير، وترويضِ مِلكة الشعر.

ولا ينكر أحد مقدارَ العناية والاهتمام اللذين توليهما المؤسسات العلمية في الغرب بحملة الثقافة الغربية من الأفارقة، فبالإضافة إلى التسهيلات التي يجدها الأديب الإفريقي في مجال التعريف به، ونشر أعماله الأدبية، توجد عناية خاصة بالموهوبين منهم، لدرجة أنَّ شاعرا إفريقيا، مثل (لِيُوبُولْد سِيدَارْ سِنْغُورْ)، يحظى بشرف الانضمام إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية، وهو شرف لا يطمحُ إليه من الفرنسيّين أنفسِهم إلا عددٌ قليلٌ، ولا شَكَّ في أنّ فرنسا لا تقوم بمثل هذا التقدير من أجل سواد عيني سنغور، وإنما لكونه من الذين أسهموا في توطيد أركان اللغة الفرنسية في غرب إفريقيا.

ونعتقد بأن رجال الأدب العربي لفي أمسِّ الحاجة إلى إعادة صياغة تاريخ الأدب العربي، وجدولة عصوره المختلفة، وتتبُّع مساره الجغرافي ليشمل المناطق التي طرقها بالفعل عبر التاريخ، وذلك بهدف العرض الموضوعيّ له، ولا بدَّ من إدراج ما ثبتت جودتُه من الإنتاج الشعري العربي الإفريقي في قائمة الروائع الأدبية التي أنتجها عباقرة الشعر، ويتم ذلك خلال دمج طبيعي له مع هذه الروائع، يُراعَى فيه التسلسل التاريخي، أو تجانس المضمون والأغراض، ولا بد من إيجاد عنوان ثابت للشعر العربي الإفريقي تُدْرَسُ تحته عيونٌ مختارةٌ من إنتاجات شعراء إفريقيا، فإغفال هذا الإجراء جناية على الأدب العربي الإسلامي الذي يعتبر ـ بحق ـ من المكاسب الثمينة التي لا ينبغي التفريط فيه.

المبحث الثاني: إسلامية الشعر العربي الأفريقي

لقد جاء الإسلام إلى الناس كافة، وأن اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم صارت لغة كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها وكانت طوال مراحل التاريخ الإسلامي رفيقة الدعوة الإسلامية ومن ثم فإن انتشارها بين معتنقي هذه الدعوة نتيجة طبيعية وأن تبوأها مكانة أولية بين المسلمين قاطبة هي من بديهيات الأمور .

والجدير بالذكر أن اللغة العربية كما هي لغة الأدب والثقافة والحضارة الإنسانية فهي أيضا لغة العلم والفن والسياسة ليست قاصرة على علم دون آخر كما يتصور بعض المستشرقين الذين في قلوبهم مرض، فهي، أو لا وأخيرا لغة القرآن الكريم.

وهكذا نجد أن الشعر العربي قد نشأ في أفريقيا في مرا بع مجالس العلماء، في هذه التربة الثقافية، فالمؤرخ الأفريقي السعدي يشير في كتابه الى نبوغ شعراء سودادنيين والأغراض التي تناولوها[1]،.

ولعل أقدم النصوص الشعرية التي وصلتنا حتى الآن لشعراء غربي أفريقيا السودانيين هي ما عثر عليه لبعض افقهاء السودانيين أمثال: **أحمد بابا التمبكتي، والطالب بن محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد نض، والشيخ يحي التدلسي، وعبد الله بن محمد القاضي، والفقيه أميننا مينخن بن الفقيه مالك.**

ولكن يصعب علينا تحديد ذلك تاريخيا أو الإشارة إلى أول من ابتدأ قرض الشعر من الشعراء الأفريقيين باللغة العربية، فهذا الشاعر محمد البخاري بن أمير المؤمنين الشيخ المجاهد عثمان بن فوديوالفلاني (ت: 1754) م، يمدح عمه عبد الله بقوله من بحر الكامل:

أصحوت أم هاجت هو اك منازل عفى معارفها البلى وهو ا طل

(بتلاثامي) أو (بجن)فسما بها إلا نعام ترتعي وفرا عل

دار عهدت بها الحلول وكل من أهو ى معي والعيش غض باجل

ولقد وقفت برسمها مستخبرا عن أهلها والدمع مني سائل

لله درك هل وقوفك نافع برسومها أم هل لدمعك طائل

وبعد هذه المقدمة الطللية على طريقة مذهب شعراء العرب الجاهليين، يصل الشاعر إلى بيت الانتقال أو كما سماه البلاغيون حسن التخلص فيقول:

فدع الديار واذكر أخدان الهوى وخرا ئد في مشيها تتمايل

وبدلا من أن يتغزل الشاعر بمحبوبته على عادة الجاهليين، إذا به يتزهد ويعدد النصائح الطويلة، مثل قوله:

---

[1] عبد الرحمن السعدي ، **تاريخ السودان** ، باريس: هوداس ، 1898 ، ص 218

واســـــلك طريـــــق أو لي لهدايـــــة واغتـــــنم فرصـــــا تمـــــر وأنـــــت منـــــها غافـــــل
وازهـــــد عـــــن الـــــدنيا فـــــإن نـــــعيمها أضـــــغاث أحـــــلام وظـــــل زائـــــل
وابـــغ الســـيادة بالعلـــوم فمـــا اســـتوي في المجـــد ذو علـــم ومـــن هـــو جاهـــل

ثم ينتقل إلى ممدوحه، وفي تعداد مناقبه بمثل قوله:

ولقـــد حبـــاك الـــدهر شيـــخا مالـــه في العلـــم في تـــلك الأراضـــي ماثـــل
أعـــني إمـــام العصـــر عبـــد الله مـــن ســـاد الشـــيوخ النبـــل مـــذ هـــو شابـــل[2]

وواضح هنا الطابع العام لمثل هذا الشعر من حيث ألفاظه وأبنيته وصوره ومحسناته البديعية، إنه امتداد طبيعي للشعر في منابعه الأصلية في الوطن العربي،كذلك فقد حرصت كثير من قصائد هذا المديح على إبراز الذخيرة اللغوية العربية وإظهار التمكن الواسع من اللغة العربية، ومعرفة أشعار الفحول من العرب القدامى لتكون بين أيدي الطلاب نصوصا للدراسة والإحاطة بهذه اللغة .

في ضوء ما عرضناه من بعض النماذج الشعرية، يمكن القول بأن الشعر العربي في أفريقيا شعر فصيح، نما وترعرع في ديار بعيدة عن موطن العربية وأن الشعراء الأفريقيين عندما نظموا شعرهم العربي إنما نظموه بلغة تعلموها كلغة ثانية، إذ إن تعلمهم للعربية لم يكن من أجل أن ينظموا بها، بل من أجل غرض آخر وهو فهم الدين الإسلامي، وعندما ملكوا زمامها أصبحوا قادرين على قرض الشعر بالعربية كما كانوا قادرين على قرضه بلغتهم المحلية وهكذا فقد صار منهم شعراء مطبوعون إلى جانب كونهم علماء قبل أن يكونوا شعراء، ولم يكن الأدب بالنسبة لهم إلا وسيلة وليس غاية .

بعد أن عرفنا اتصال الأفريقيين بالشعر العربي وتذوقه من قبل العلماء في مجالسهم التعليمية، وكيف أصبح بعض منهم – ما بعد – قادرين على قرض الشعر بدون تكلف أو تصنع فلننظر الآن في العوامل التي كانت وراء دفع حركة الشعر العربي في أفريقيا إلى النهضة والازدهار والتطور.

لقد كان الشعر أهم ما يعتمد عليه العلماء والمتعلمون في أفريقيا حيث جعلوه غايتهم ومعيارا تقاس به المستويات العلمية بين أوساطهم،كان علماء هذه القارة يقرضون الشعر ويتنافسون في نظمه على الأرض الأفريقية فنشأت حركة أدبية وشعرية ذات أغراض إسلامية، ففي هذه المناسبة كان يجتمع أعلام العلماء، وكبار الشيوخ من جميع أنحاء أفريقيا الغربية لمدة أسبوع، إنها موسم أدبي يحرك في بعض العلماء الأحاسيس الشعرية ويدفعهم إلى نظم القصائد حول تلك المناسبة التي يجتمعون فيها.

ولقد وجد إلى جانب ذلك مراسلات شعرية بين العلماء كانت تتم حين يقصد أحدهم زيارة صاحبه في مدينته، فإن هذا الصاحب كان يستقبله بقصيدة ترحيبية فيها مدائح شريفة له، وفي المقابل فإن الزائر لا يرجع إلى بلده ولا يترك صاحبه إلا بعد أن يرد عليه بقصيدة مثلها في فضل صاحبه الذي

---

[2] ينظر في: أحمد غلادنتشي ، **حركة اللغة العربية وآدابها** ، ص: 117

استضافه، وأنه وجد إلى جانب ذلك المنظومات التعليمية التي في طياتها المبادئ الفقهية والقواعد الشرعية في شكل شعري منظم.

وقد شكلت هذه أهم ظاهرة أدبية وشعرية في حركة الأدب العربي في أفريقيا، وبها نما الشعر لدى الأجيال.[3] **لقد استنكر البر ناوي الماهر على الشيخ بن فودي حضور النساء لوعظه بقوله:**

عليك منا تحيات مباركة ... شممن مسكا وسكا من يلا قونا
أيا ابن فودي قم فأنذر أولي الجهلا ... لعلهم يفقهون الدين والدونا
فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ ... خلط الرجال بنسوان كفى شيئا
لا تفعلن ما يؤدي للمعايب إذ ... لم يأمر الله عيبا كان يؤذينا
إن المممات وما بعد الممات وجهلا ... بالعواقب وعظ كان يكفينا
وأبيت المصطفى بج يتممها ... في عام رش مع زيد العد يغنينا

ويقول العلامة عبد الله بن فودي ردا على قصيدة العالم البر ناوي الماهر:

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا ... سمعا لما قلت فاسمع أنت ما قلنا
نصحت جهدك لكن ليت تعذرنا ... وقلت سبحان هذا كان بهتانا
إن الشياطين إن جاءوا لمجلسنا ... هم يبثون سوء القول طغيانا
لسنا نخالط بالنسوان كيف وذا ... كنا نحذر لكن قلت سلمنا
إن كان ذاك ولكن لا أسلم أن ... يتركن بالجهل هملا كان إحسانا
إذ ارتكاب أخف الضر قد حتما ... يكفر الجهل إن ذا كان عصيانا
هذه البلاد وجدنا قومها غرقوا ... في الجهل نمنعهم أن يفقهوا الدينا
قد قيل تحدث للأقوام أقضية ... بقدر ما أحدثوا خذ ذاك ميزانا
الحمد لله ذي الإنعام هادينا ... ثم الصلاة على المختار هادينا
وآله صحبه أبياتنا كملت ... وعدها حب والتاريخ نشقنا[4]

تصور هذه الأبيات وغيرها من الأبيات السالف ذكرها البيئة الأفريقية التي نشأ فيها الأدب العربي الأفريقي، وهي تنعكس على البيئة الأدبية والشعرية والثقافية العربية في إفريقيا، هذه البيئة التي تمثل المنبع

---

[3] ينظر في: يوسو منكيلا ، **الأدب العربي النيجر ومؤثرات الاستعمار الفرنسي في مجرى تطوره** ، طرابلس: 2009م ، كلية الدعوة الإسلامية ، رسالة دكتوراه.

[4] – ينظر في:الشيخ عبدالله بن فودي ، **تزين الورقات** ، ص: 9

* – قار: بلدة قار في بلاد غوبر القديمة التي فتحها الشيخ عثمان بن فودي عندما تأكد على الفساد والرد فيها .

والمصدر الثالث للشعر العربي الإفريقي بخاصة والأدب العربي الأفريقي بعامة بعد القرآن الكريم المصدر الأول والسنة النبوية الشريفة المصدر الثاني.

تلك هي من أهم المجالات التي ترعرع فيها الشعر العربي في أفريقيا ونما بين أجيال هذا القرن علما بأن ما ذكرناه كانت إرهاصاته ترمي إلى عهد ما قبل الاستعمار حيث اهتمت المجالس التعليمية القديمة كل الاهتمام بالشعر العربي بقصد تسهيل حفظ القواعد الفقهية خاصة والأحكام الرعية عامة.

وفي الحديث عن الأغراض الشعرية في أفريقيا فإنها تنحصر منذ الفترات المتقدمة وحتى عهدنا هذا في تلك الموضوعات التقليدية المعروفة التي هي: المدح والفخر والتحريض على الجهاد، أو الوعظ والإرشاد، والحكم، وشعر الشكوى والحنين، والتوسل الذي كان قليلا ما يجيء في ثنايا المدح، إلا أنه في السنوات العشر الأخيرة عثرنا عند بعض الشعراء المعاصرين أمثال (أحمد محمد الشفيع) على موضوعات جديدة كشعر الوحدة الوطنية والشعر الاجتماعي وشرب الشاي وغيرها من الأغراض الأخرى.

أما الصفات التي يمدح بها الشاعر فمعروفة ومعظمها تقليدية مثل الكرم والشجاعة وإغاثة الضعيف، والعطف، والحلم، ونجدة الجار، والعلم والتقوى إلى غير ذلك.[5]

وفيما يخص العلاقة بين فكرة الشعر والمعتقد نلاحظ أن كثيرا من الناس وبخاصة الغربيين لا يستمتعون بمثل هذا الشعر إذ كانوا يختلفون مع الشاعر في معتقداته وأفكاره الدينية، وفي الجانب الآخر يقف الذين يعلنون أن تلك المعتقدات والأفكار الدينية لا تلعب دورا مهما في تذوق شعره باعتبارهم قراء موضوعيين، وفي الحقيقة إذا كان الشاعر يناقش هذه الأفكار ويدلل عليها فإن المعول في شعره على العاطفة لا الموافقة العقلية والإحساس الديني مثل غيره من الأحاسيس التي يعبر عنها الشاعر فمن الممكن أن نشارك فيها ونتفهمها ونضع أنفسنا في مكانه .

إنهم إذن شعراء واقعيون ينتمون إلى الرعيل الذي يراهن على المستقبل الذي يسير أبدا إلى الأمام، ولما كان الدين الإسلامي هو المؤثر الوحيد والأساسي في نشأة القصيدة الأفريقية، ونموها حيث إنها لم تتحرر منه بل إنها لم تحاول التحرر منه، ولا عجب، إذ إنها لا تقر بوجود لها خارج دائرة التوحيد، ومن هنا فقد جاءت معاني هدا الشعر المختلفة معبرة عن الحقيقة الثابتة الصادقة.

ففي المدائح والرثاء وحتى الغزل وغيرها من الأغراض لا نجد إلا ما هو واضح في الواقع إذ لم تكن موضوعاتهم بحاجة إلى التكلف والمبالغة، فمعانيها لا تعرف المغالاة .

والشاعر يعبر عنها بصدق وبساطة وذلك في قصائد مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الوعظ والإرشاد، وإن كنا نجد في بعض المرثيات والمديح شيئا من المبالغة، ولكن ذلك ضئيل جدا إذا ما قيس بالتي تخلو من ذلك.

---

[5] ينظر في: **الأدب العربي النيجري** ، المصدر السابق ، ص: 252

ومما يلفت النظر إلى الشعر العربي في أفريقيا كثرة ما به من المعاني الجديدة، وبالأخص ما أنشد تعبيرا عما كان من الأحداث الخاصة والمختلفة في حياة الشعراء، فقد أبدعوا فيها على تنوعها، فقد استطاع الشعراء أن يركبوا على المعنى معنى آخر أو أن يزيدوا عليه زيادة حسنة أو أن ينقلوه إلى موضع أحق به من الموضوع الذي هو فيه، ومن المعاني الجديدة والطريفة في هذا الشعر نظرتهم الفلسفية إلى الحياة التي جاءت في صورة اليقين والتأكيد، يقول الشاعر مهدي معاذ في قصيدته "نظرة الحياة" من الكامل:

وإذا نظـــــرت إلى الحيـــــاة وجـــــدتها عـــــدم الثبـــــات لحالهـــــا المتداخـــــل
لـــــولا تقلـــــبها لكـــــانت حلـــــوة أو مـــــرة عنـــــد اللبيـــــب العاقـــــل
لـــــولا تقلبهـــــا لصـــــارت عـــــزة أو ذلـــــة في ثوبـــــها المتنـــــاول
لـــيس الشـــجاع مـــن انتهـــى مستســـلما إن الشـــجاع مكـــافح بتنـــا ضـــل
فـالأمـــــر بـــــين نشـــــوئه ونـــــموه ومـــــروره بمراحـــــل فمراحـــــل
هـــذي الحيـــاة كمـــا أرى وأعيشـــها إن الحيـــاة تشـــاؤم بتفـــاؤل

لا شك أن هذه الأبيات لا مست الروح الحقيقية للشعر الحديث الذي يقول عنه الكاتب أمين مازن بأن (الأصل في الشعر الحديث أن يتفتح الشاعر على الحياة ويسخر شعره لتصوير مشاعر الناس بصدق منطلقا من تجربة شعرية عميقة وإحساس شعري أصيل[6].

إلى صراع الأضداد في تلك اللوحات المتضادة التي رسمها للحياة، إن الشاعر لا يقف أمام هذه التجارب موقف المتطاول ولا يركن إلى الصراع وافتعال البطولة الزائفة ولكنه يقف موقف الإنسان في أشيائه الصغيرة ولحظات الإنسانية البسيطة، إنه يتأمل وفي تأمله قد يتشاءم، وقد يستشعر المرارة وتبدو الأشياء أمامه في حجمها الطبيعي ولذلك تظل مشاعره محررة من أي افتعال أو ادعاء كاذب وتأتي القصيدة هذه الأكثر تأملا وأدعى إلى الصدق وأقرب إلى تمثل الأزمة في أعماق النفس البشرية. إن الشاعر في هذه القصيدة قد نجح في تصوير تناقضات الحياة وصراعاتها التي تضمنت استمرارية الحياة وبقاء الكون معتمدا على مهرجان فني من الصور القائمة على التقلب والتغير.

المبحث الثالث: مواكبة الشعر العربي للحياة اليومية

إن الأديب أو الشاعر بعامة يعتقد ويقول ما يعتقد، وأحيانا أخرى يعتقد ولا يقول ما يعتقد، وإذا ما حاولنا أن نصنف الشعراء وفق هذا المعيار يبقى الأديب الإفريقي أو الشاعر الأفريقي من النوع الأول، لذلك نجد أن هذا الشاعر يحدد مواقفه بوضوح طبقا لما يجده في محيطه، ومن ثم يتابع الحياة

---

[6] أمين مازن ، **دوائر الزوايا المتداخلة** ، طرابلس ـ ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، ص: 44.

اليومية، والذي يدفعه إلى ذلك هو إيمانه بالله عز وجل وبالحرية الإنسانية الإفريقية التي هي حق طبيعي لكل مخلوق، فالإنسان عنده يختار، وفي اختياره يضع الحلول لما يمكن تحقيقه لأنه لا يمكن تحقيق كل الممكنات، لكن الإنسان ليس حرا فقط عند هذا الشاعر العربي الأفريقي، بل عليه أن يقول ما يعتقده لتلك القوى الظالمة المستبدة وإلا لا معنى لهذه الحرية ولتلك الهوية التي يدافع عنها، ولذلك نجد أن الشعراء في أفريقيا قد مروا في حياتهم بمراحل شاقة خطيرة بعضها مغامرات وأخرى تضحية[7].

وفي أكثير من قصيدة يعلن الشعراء الأفريقيون استمراريتهم والتزامهم بالدفاع عن القارة، والنهوض بها والنضال من أجل هويتها الإسلامية، وقد عبروا في أشعارهم عن حبهم للقارة حبا عميقا، فهذا الحب هو المنبع الأول الذي تدفعت منه وطنيتهم وأشعارهم السياسية فما كادت تتفتح ملكاتهم الشعرية حتى أخذوا يؤكدون هذا المعنى وينظمون فيه، فنراهم في قصائدهم يشيرون إلى حقائق العصر؛ وأن الاستعمار الغربي مصدر كل الآلام التي تعاني منها الشعوب المستضعفة وما يراهم حلا نهائيا لتك المشاكل والهموم، اسمع قول الشاعر النيجري «أحمد محمد شفيع»:

إن الصـــــراع يـــــدور اليـــــوم في قلـــــق ... بـــين الحضـــارات كـــل يبتغـــي الغلبـــا
إن الشـــــباب لهـــــم دور الـــــريادة في ... هـــــذا المجـــــال فهـــــم درع لأمتنـــــا
لأمـــــة جســـــد القـــــرآن مبـــــدأها ... لأمـــــة تحفـــــظ الأخـــــلاق والسُّـــــننا

من خلال القراءة الثانية لهذه الأبيات ندرك أن شعراء هذا الجيل من الأفريقيين هم شعراء جيل آمن بأن الشعر يجب أن يكون أداة إيصال وتبليغ لا أداة تزجية فراغ، وأنهم حاولوا أن يجعلوا الكثير من أشعارهم منبرا لآرائهم ومعرضا لأحاسيسهم ومشاعرهم.

إن هذا النوع من الشعر يمثل رفضا قاطعا أمام تحديات هذا العصر في شتى أشكالها، وأنه شعر يرفض كل ما من شأنه طمس الهوية الأفريقية الإسلامية وتسجيل الانتصارات الكثيرة التي كانوا يفوز بها أولئك الأفريقيون على أعدائهم، وتحريض جماعتهم وإثارتهم للقيام بالدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم الدينية وعن قارتهم العظيمة والتنديد ، ويقول الشاعر التشادي أحمد عبد الرحمن إسماعيل:

رجعـــــــت إليـــــــك يا نهـــــــري ... ويا مـــــــــــددي ويا قـــــــــــدري
رجعـــــــت إليـــــــك ولهـــــــانا ... وحبـــــــك في دمـــــــي يســـــــري
وللغـــــــــابات في الـــــــــوادي ... وللصـــــــــفو الـــــــــذي يجـــــــــري
رجعـــــــت إليـــــــك يا شـــــــاري ... أيا شـــــــكلا مـــــــن التـــــــبر
أذوق فيـــــــــــك أحيـــــــــــانا ... مـــــــــذاق الشـــــــهد والخمـــــــر
فـــــــلا تـــــــبر ولا شـــــــهد ... ولا خمـــــــــــر ذي شـــــــــــكر

[7] ينظر في: **الفصول الأربعة** ، *مجلة فكرية ثقافية تصدر فصلية عن رابطة الأدباء والكتاب* ، العدد: 96 ، 2001م.

فأنـــــــــت الكــــــــوثر الصـــــــافي وباقـــــــي النبـــــع مـــــــن عكـــــــر[8]

في هذه الأبيات الجميلة قد صورت لدى الشاعر الهوية الوطنية وأناشيد العودة إلى الوطن،لقد شكل التغني بالوطن، والعزف على أوتار الوطنية والاعتزاز بالهوية الوطنية العناصر الأساسية جرى عليها الجوهر العلمي الإبداعي لشعراء القارة الأفريقية في فترة من فترات تاريخ الأدب العربي الأفريقي، كما أن تصوير الكفاح ضد الاستعمار وأذياله قد طرق غرضا في الشعر العربي الأفريقي وذلك انطلاقا من الإحساس بعمق الجريمة التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي بحق الشعوب الأفريقية، فأدى ذلك إلى مشاعر الكراهية والبغض لهذا المستعر، يقول الشاعر:

نحـــــــــن الشـــــــباب قـــــــوة فتاكـــــــــة ضـــــــد العـــــــدا
إذا اتحـــــــــــــدنا كلنـــــــــــــا صـــــــــارت قـــــــوانا كالقـــــــذى
في أعـــــــــين المســـــــــــتعمري ن الحاقـــــــــــدين ســـــــــــرمدا
هيـــــا لنحمـــــي القـــــارة الســـــــ ــــــمراء رمـــــــزا للفــــــدا
هيـــــــــا لنحمـــــــــي قـــــــارة أضـــــــحت تســـــــير القهقـــــــري
فـــــــا لغـــــــرب لا يريـــــــدنا أن تســــــــــــتغل أرضـــــــــــنا
لـــــــــــــذا يـــــــــــؤجج ناره مـــــــن هاهنـــــــا وهـــــــا هنـــــــا[9]

وقد تطرق الشعراء الأفريقيون في أغراضهم الشعرية الى نقد الفساد والدعوة الى الإصلاح السياسي،ولعله من أخطر الأغراض التي لم يكن الشعراء يتدا ولونها بحرية تامة، يوجهون في هذا الغرض انتقاداتهم لكل ما يلاحظونه من أخطاء وانحرافات، بأساليب متعددة، قد يمس بعضها رأس النظام بصورة مباشرة أو غير مباشرة، اقرأ معنا قول الشاعر عيسى عبد الله التشادي:

يا نائـــب الشـــعب إن الشـــعب قـــال كفـــى لا ناب في دارنا مـــن يثقـــل الـــو طئـــا
هيـــا أقيمـــوا مـــع الأحـــزاب مائـــدة تبـــين للشـــعب مـــن آرائكـــم مـــرأى
مـــاذا جلبنـــا مـــن الأحـــزاب تعـــدادها تســـع وتســـعون حـــزبا فاقـــدا جـــزءا
مـــا ضـــرنا أننـــا أن لا يكـــون لنـــا تســـعون حـــزبا لشـــعب يأكـــل الخبئـــا
حـــزبان لا غـــير، إمـــا ذاك يحكمنـــا ردحـــا مـــن الـــدهر، أو هـــذا الـــذي ينـــأى[10]

هذه الأبيات شهادة تاريخية مؤسفة من الشاعر الإفريقي الغيور على قارته وشعوبها المسلمة، وفي الوقت نفسه هذا الكلام تنبيه إلى ما يجري في القارة الإفريقية في هذه السنوات الأخيرة من صراعات

---

[8] قصيدة مخطوطة في مكتبة الباحث.

[9] ديوان الشاعر التشادي اسماعيلن مخطوط بكتبة الباحث.

[10] ديوان الشاعر مخطوط بمكتبة الباحث.

ونزاعات اجتماعية التي تؤدي إلى هذه الحروب الطاحنة والتي تسبب في خسارة الأرواح بالألوف سنويا، عليه إنه يصور الماضي الاستعماري الكئيب الذي ذاقت فيه القارة صنوفا من الذل والاهانة وتجرعت ألوانا من الظلم والضغط وطمس الهوية الإفريقية، وذلك بوسائل متعددة ومختلفة.

والشاعر لا يترك هذه الحقيقة التي يعلنها عارية عن الدليل والبرهان، وإنما يقيم الأدلة على صدقها حيث يسلك في ذلك مسلكا منطقيا دقيقا فيسوق المقدمات واحدة تلوى أخرى. والشاعر النيجري مهدي الحاج معاذ يقول:

إن الحيـــــاة مواقـــــف ومخـــــاطر   والحـــال بـــين تراجـــع وتقابـــل

وإذا الشـــعوب تضـــامنت وتكاملـــت   تنجـــو مـــن الظلـــم الكريـــه الشـــامل

وإذا العقـــول تحركـــت وتفكـــرت   تأتي بشـــيء لا أبا لـــك نائـــل

لـــيس الشـــجاع مـــن انتهـــى مستســـلما   إن الشـــجاع مكـــافح بتناضـــل

فـــالأمر بـــين نشـــوئه ونمـــوه   ومـــروره بمراحـــل فمراحـــل

هذه الأبيات في رأينا تمثل الإجابة المنتظرة للخروج من هذه المسكنة التي يعيش فيها أغلب بلدان القارة الإفريقية وبخاصة التي استعمرتها فرنسا بسياستها المعروفة : فرق تسد، تمثل حيث تسيطر على الشاعر فكرة واحدة، وهي الضيق بهذه الحياة المظلمة التي يحيا ها الأفريقيون في أوطانهم من التشابه الفرنسي المزيف على حساب الثقافة الأفريقية الأصيلة، وهذا السخط على ما تعج به من مفاسد وشرور وأهوال هو الدافع إلى هذا النوع من التوق إلى التخلص منها والانصراف عنها إلى قبول سياسة الاتحاد الإفريقي هذا المشروع العظيم والحل الآمن لكل ما نعيشه الآن من تشتت في الأفكار والميول والاستعداد بالتشاور بين الفريقين والتضامن الإفريقي بغية الوصول إلى سطع الحق وتنعم بالطمأنينة والأمن والسلام.

بهذه الأبيات وغيرها توضح لنا الخطوات التي كانت تحرك وجدان الشعراء للتعبير عن الشعور الرافض للسياسة والاحتكار للإمبريالية الغربية تجاه الدول الناشئة في القارة الأفريقية، وبخاصة محاولة طمس هوية الأفارقة الإسلامية، بنظمهم الكلاسيكية في السياسة والتعليم والاقتصاد، ولقد عاصر أغلب الشعراء الأفريقيين الأحداث السياسية في أوطانهم وتفتحت ملكتهم الشعرية على أصداع الحركات الوطنية وعلى تلك الفترة التي كانت من أسوأ الفترات التاريخية التي مرت بالقارة، فقد اتسمت بالظلم والصراع وظهور الخلافات الدينية والاجتماعية وكانت القوى الغربية وسياستها المبنية على التفرقة وراء كل ذلك.

والجدير بالملاحظة إن العاطفة الدينية الإسلامية هي المسيطرة على إنتاج هؤلاء الشعراء الأفريقيين في جميع قصائدهم التي حاولوا فيها الدفاع عن قارتهم، ولا غرابة في ذلك حيث إن الدين والوطنية توأمان[11].

المبحث الرابع: التطور النوعي للشعر العربي الأفريقي

بناء على ما سبق ذكره فإن تطورَ الشعر العربي في إفريقيا لم يكن بالأمر السهل بالمقارنة إلى المناطق التي كانت توجد بينها وبين شبه الجزيرة العربية أرضية لغوية مشتركة، أوصلات تاريخية تجعل من السهل أن ينبغ أبناؤها في اللغة العربية وآدابها، وتكمن الصعوبة في الجهد الذي ينقل به الشاعر الإفريقي تعبيره من مستوى لغوي معين إلى مستوى لغوي آخر يختلف عنه تمام الاختلاف.

فالشاعر الإفريقي لا يصل إلى التعبير باللغة العربية إلا بعد أن يمرَّ بمراحلَ متدرجة تبدأ من الكتاتيب التي يتم فيها التعرف إلى تهجي الحروف واحدا بعد الآخر، بدون شكل في المرحلة الأولى، وتهجّيها بعد ذلك مع الأشكال في مرحلة ثالثة، ثم التعرف إلى الجمل في مرحلة ثالثة، ذلك كله لكي يتمكن من التعرف إلى الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، مما يسمى في التربية بالطريقة الجزئية في القراءة.

والجدير بالملاحظة إنه يتطور التكوين اللغوي والأدبي عند الأديب الأفريقي فيبدأ إعدادا لغويا عاليا، فيدرس من علوم اللغة العربية مثل متن الآجرومية في النحو، ويقف على علم العروض والقافية، ويأخذ تكوينه اللغوي منحى أدبيا يتمثل في التعرف إلى الشعر العربي من معلقاتِ السبع، ومقامات الحريري، وإلى هنا تقريبا، يتوقف تكوينه العلمي ثم يوسع ثقافته الذاتية بنفسه من خلال أمهات الكتب المعروفة في ذلك العهد كفقه اللغة للثعالبي، وكتاب سيبويه، والقاموس المحيط، وهي مرحلة كبار العلماء، وبالجملة لا يستوي تعبيره إلا أن بعد أن يدرس علوم اللغة العربية، ويطلع على أمهات كتب اللغة والمعاجم المعتبرة، ويصقل مواهبه بالتمرس على أساليبهم في التعبير .

هذا كله خلافا للشاعر العربي أو الشاعر غير العربي الذي ولد، أو نشأ، في بيئة عربية، فتكلم بلسان العرب منذ نعومة أظفاره، وتهيَّأَ له من الفرص ما يجعله يأخذ العلم من أفواه العلماء مباشرة، ويتمرس الشعر بالقرب من مصادره، ومنهم من يثري قاموسه اللغوي في البوادي بين العرب الأقحاح مع كونه عربيا، ومنهم من تسري فيه الشاعرية بالوراثة، فيكون بين سلسلة عائلته شعراء مشهورون، ولا بد من أن يتأثر من قريب أو بعيد بحركة الأدب وتطوره، وبتنوع أساليب التعبير واختلافها، وذلك كله معروف لدى كل من قرأ شيئا من سيرة حياة شعراء اللغة العربية الفحول.

إن هذه النقطة هامة للغاية، إذ ليس من السهل على إنسان أن يبرع في لغة مثل اللغة العربية أن

---

[11] ينظر في: يوسو منكيلا ، **الشعر العربي في النيجر** ، طرابلس: جامعة الفاتح ، بحث ماجستير ، 2001م ، ص: 149.

يقول فيها شعرا موزونا ومقفى، يجمع فيه إلى جانب السلاسة والجزالة جمالَ المعنى ودقَّةَ الوصف، و يصلَ درجةً يرتجل فيها الشعر بالعربية ارتجالا، ويساجل فيه غيره مساجلة. وليس من الوجاهة كذلك القولُ بأن انتشار علوم اللغة العربية في القارة بالشكل الواسع الذي يشهد به التاريخ هو سبب النبوغ الإفريقي في الشعر العربي، فمما لاشك فيه أن في إفريقيا شعرا إفريقيا صرفا يختلف عن الشعر العربي، ولهذا الشعر موازينه وضوابطه، ولقد عرف الأفارقة نظام القافية، وتناغمَ التقطيعات الصوتية المتوازنة، وما يحدثه الكلام الموزون من تجاوب مع الجسم، ذلك أن الشعر واحد من أساليب التعبير التي لازمت الإنسان منذ فجر تاريخه، مثل الرقص تماما، فلقد عرفت كل الشعوب كيف تتغنى بآمالها وآمالها، واكتشف كل شعب من الشعوب ما في الكلام الموزون من إيقاع، وما في توحيد أواخر المقاطع الغنائية من جمال.

إن دور الشعراء الأوائل في إفريقيا كان بعيدا كل البعد عن التكسب بالشعر، فلقد كانوا يتولون وظيفة اجتماعية هامة ومميزة، وهو إسداء النصائح لملوكهم، وبذل المشورة لهم، وتهيئتهم نفسيا لخوض معركة ظافرة، أو إلغاء مشروع هجوم عسكري تم الإعداد له، ولم يتسن لهم ذلك إلا لما تميزوا به من قدرة بلاغية فائقة تدعمها ملكة تعبيرية عالية غير عادية، ولقد قاموا بأدوار هامة في عقد المعاهدات وإبرام الصلح بين القبائل.

لا غرابة إذن أن يبرع الأفارقة في الشعر العربي، ويصلوا فيه إلى ما وصل إليه فحول شعراء العرب، وينبغوا في الوصف لدرجة يصعب معها التفرقة بينهم وبين فحول شعراء العربي، وتوجد، من بين ما تركه شعراء غينيا من إنتاج شعري، مجوعة من القصائد بلغت من الجودة ما بلغته قصائد شعراء العربية، ومن جمال التعبير ما طبع الشعر العربي إبان مجده في العصرين الأموي والعباسي.

ولقد نضج الشعر العربي في إفريقيا، وبلغ شعراؤها من النبوغ فيه مستوى لا ينخفض عن مستوى شعراء العربية أيام ازدهار آدابها في العصور الذهبية، وإنك واجد فيهم من يقول الشعر كما قاله امرؤ القيس ولبيد، وفيهم من تساوى التعبير لديه في الشعر مع تعبير المتنبي وأبي تمام والبحتري، وفيهم من لا يقل شعره رقة وعذوبة عن شعر شعراء الأندلس أيام مجدها العربي.

ففي الوصف، وعلى الرغم من أن الشعراء الأفارقة من الجيل الأول لم يتعرضوا كثيرا لوصف الطبيعة، ولا اهتموا في الغالب بوصف حيوانات بيئتهم، فإن قصائدهم تناولت الموضوعات التي تناولها الشعراء العرب قديما، فوصفوها كما وصفها هؤلاء الشعراء، وبرعوا في وصف الناقة والفرس كما برعوا في وصفها.

اقرأ الأبيات الآتية، وهي لشاعر (طوبى) الفذ، (كَرَنْ قُطُبُ) يصف فيها رحلته إلى موريتانيا للاستشفاء مِن داءٍ ألمَّ به، تجد فيها من خصائص التعبير الجيد ما يطبع قصائد الفحول من شعراء العربية:

وعَلِمـــــتُ أنَّ المجـــــدَ عَـــــزَّ منالُـــــه إلاَّ بِإِرْقـــــــالِ المطَـــــــايَا الوُخَّـــــــدِ

في ذاكَ إدْراكُ المعالِي والمنَى ... إيْ، والمهيمِنِ، والحظايَا المجَّدِ
فدَعِي الضَّريرَ يَحُثُّ بينَ مُهجِّرٍ ... وَمُعرِّسٍ ومُصوِّبٍ ومُصعِّدِ
عَيساءَ مُسفِنةَ اللَّبانِ شِمِلَّةً ... وَجْناءَ ناحبةً سَبُوقَ المِنْجَدِ
فَإنِ احْتَظَتْ لا غَرْوَ في وِجْدانِها ... وَإنِ انْثَنَتْ صِفْرًا فَلَسْتُ بِأَوْحَدِ
وَرَأَيْتُني يومًا أَنُوحُ نِياحةً ... سلكتْ فُؤادي مِسْمَطَ المتفئِّدِ
وَكَأَنَّما جفْنِي المسهَّدُ صِفْرَدٌ ... فزِعٌ متَى يَرُمِ الجُثومَ يُطرَّدِ
فَرَكِبْتُ قوْدَاءَ الهَجانةِ قاصِدًا ... ساحَ الذي يُصْغِي لها مِنْ صِنْدِدِ
حَتَّى سمِعْتُ مُشنِّفًا أُذْنَ الشَّجِي ... بِنُعُوتِ مَن يشكَى شِكايةَ مُوجِدِ
فقصدْتُ ساحتَهُ وقالَتْ اسمَعَنْ ... (مَنْ يستجيبُ لأنَّةِ) المتوجِّدِ
فسمعتُه فوجدْتُه يُسْدي الشَّجي ... وهِجَ القَطِيعَةِ بالوِصَالِ المبرِدِ
وَأَرَيْتُه سُمًّا لَسُودًا مِمْغَدًا ... فوجدْتُهُ تِرياقَ سُمِّ الأسودِ

فالشاعر استخدم من الألفاظ العربية الأصيلة ما يشهد له من التمكن في اللغة، وعلى الرغم من أنه جمع في أبياته من غرائب اللغة قدرا كبرا فإن التعبير لم يتحول إلى نظم، كما هو متوقع، فأنت تشعر أن الكلام سلس، والألفاظ متوازنة لا تنافر بينها، والشاعر لم يحشد الألفاظ الغريبة حشدا، وإنما وردت خلال الأبيات في سلاسة، ونزلت في مواقعها نزولا طبيعيا لا تكلف فيه، ولم يكن قصد الشاعر منها إبراز مدى ثقافته المعجمية الواسعة بالكلمة العربية، ولكنه شاعر يعرف كيف يجعل منها كيانا تعبيريا متوازنا، وشعرا سلسا.

إلا أن الأجيال المتعاقبة من الشعراء الأفارقة توفر لديهم من الثقافة العصرية ما استطاعوا أن يطعِّمُوا به قصائدهم، ومن معاصرة التطورات الحاصلة في الأدب العربي الحديث ما جعلهم يواكبون الأحداث الجاريةَ في قارتهم وخارجها من خلال قصائدهم التي أخذت بالتدريج تفقد القوالب الفنية القديمة، وتتحرر من سيطرة امرؤالقيس، وتكف عن وصف الأطلال، والحديث عن الطرائد.

ونقدم نموذجين من الشعر العربي الإفريقي القديم والمعاصر للتدليل على الطلاق الفني الذي حصل بين شعراء الجيل الحاضر والجيل الماضي في مجال التعبير الشعري، ولبيان حجم التغيرات التي طرأت على القصيدة العربية الإفريقية المعاصرة.

الخاتمة ونتائج البحث:

ولقد وجدنا الحاجة ماسة إلى التعريف بالإنتاج الأدبي العربي الإفريقي في القارة الإفريقية من المخطوطات العربية، علما بأن هذا الموضوع محاولة للإسهام في الأنشطة البحثية التي تسعى إلى جمع التراث العربي الإفريقي، كما أنها محاولة للإسهام في تأصيل المراجع الأولية الخاصة بهذا التراث الإسلامي

في إفريقيا بعامة، وفي الغرب الإفريقي بخاصة ، حيث إن الميدان خصب، ومجال البحث واسع، ويقع على عاتق أبناء المنطقة مهمة البحث فيه قبل غيرهم من الباحثين الأجانب، لكونهم أعرف بالبيئة، وأقرب من مصادر العلم والأدب فيها.

ونحن نؤمن بأن المستقبل القريب سيحطم من تلقاء نفسه كل الحواجز الفاصلة بين قراء العربية، يوم أن تصبح الوحدة المرتقبة بين الأقطار الإسلامية العربية عاملا جوهريا من عوامل الاتصال في مختلف ألوانه، ومنها الاتصال اللغوي الذي يحقق وحدة الفهم المتبادل ... وعندئذ يستطيع الكاتب القصصي أو المسرحي مهما كانت جنسيته العربية أن يخاطب قراء العربية في كل بقعة من العالم الإسلامي الكبير باللغة الفصحى ... ، ومراعاة القيم الخلقية التي تراعي مشاعر المسلمين وروح الإسلام ، بل أيضا من حيث اختيار لغة الخطاب والتواصل وآلياتهما ، بما يخدم واقع المسلمين ويقرب المسافة بين الشعوب، ويكسبها قدرة زائدة على مواجهة التحديات الفكرية ، ولا سيما اللغة التي هي وعاء الفكر.

ثبت المصادر والمراجع:

أولاً: المخطوطات:

أ\ ديوان الشاعر مهدي معاذ: مخطوط

ب\ ديوان الشاعر أحمد شفيع: مخطوط

ج\ ديوان الشاعر أحمد عبد الرحمن إسماعيل: مخطوط

د\ ديوان الشاعر عيسى عبد الله: مخطوط

و\ ديوان الشاعر كرن قطب: مخطوط

ثانيًا: المطبوعات:

1\ محمد ابن شريفة، إبراهيم الكانمي، أنموذج للتواصل الثقافي بين المغرب والسودان

2\ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، هوداس، باريس 1898م

3\ أمين مازن، دوائر الزوايا المتداخلة، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا

4\ يوسو منكيلا،الشعر العربي في النيجر (الماجستير) جامعة الفاتح، طرابلس، 2001م

5\ يوسو منكيلا، الأدب العربي النيجري ومؤثرات الاستعمار الفرنسي في مجرى تطوره

6 \ عبد الله بن فودي، تزيين الورقات، نيجريا

7\ الفصول الأربعة، مجلة فكرية ثقافية عن رابطة الأدباء والكتاب، طرابلس

8\ د. عدنان علي رضا النحوي، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته

9\ د. عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب

10\ د. عامر سمب، الأدب العربي السنغالي.